تصحيح نص عربى قديم

وفيه شاهد على تطور العقلية العربية بعد الإسلام

للأستاذ عبد القادر المغربى

جاء فى كتاب (طبقات الشعراء) لأبى عبدالله بن سلاّم الجُمَحى المتوفى (سنة ٢٣٢ هـ) نص يتعلق بأخبار (عقيل بن عُلّفة) فيه اضطراب وفيه تلفيق أحببنا تحقيقه فى هذا المقال.

والنص — عدا ذلك يتضمن فائدة تتعلق بالاجتماع الإسلامى وتصف لنا ناحية من نواحى عقلية العرب وتطورها بعد الإسلام.

وعقيل بن علّفة هذا من أتباع (مدرسة المخضرمين) أو (مدرسة الخضرمة) إن سُمح لنا بهذا التعبير. وهى المدرسة التى تتلمذ فيها طائفة من الأعراب أسلموا ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم؛ فكانت معرفتهم بآدابه سطحية. كانوا يراعون تلك الآداب حيناً ثم يغلبهم طبعهم الجاهلى فيعودون إلى ممارسة ما اعتادوه فى جاهليتهم حيناً آخر. كانوا يتعزّون بعزاء الجاهلية. ويحاربون القبائل المعادية لهم عصبيةً لوشائج الأنساب لا إقامة لحدود الله وشرائع الإسلام. وما كانوا يتورّعون من شرب الخمر فى بعض الأحايين ولا من الحنين إلى نزعاتهم الجاهلية: ومنها الفخر والمنافرة والمهاجاة والإفراط فى الغيرة. كان فيهم جفاء وغلظة لم تخالطها بشاشة الإسلام وسجاحته ولين جانبه.

ومن أشهر تلاميذ هذه المدرسة (عقيل بن علّفة المرّى) و (عُلّفة) على وزان (قُبّرة) اسم للواحدة من ثمر الطلح. وهو ثمر أشبه باللوبياء.

كان عقيل أعرابيا جِلفا مفرط الغيرة، له نزوع شديد إلى عادات الجاهلية، فخوراً بها، داعيا إليها

هنّأ يوما أحد فتيان قريش بزواجه قائلا له: «بالرفاء والبنين والطائر المحمود»، فقيل له: يُكره أن يقال هذا فى الإسلام وإنما هو من تهانى الجاهلية. فأجاب عقيل: يا ابن أخى! ما تريد إلى ما أحدث؟ إن هذا قول أخوالك فى الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره».

وقد رويت كلمته هذه للزهرى فقال إن ابن عُلّفة كان من أجهل الناس.

وعدا بنو جعفر على مولى لابن علفة، فعَدَا هو على مولى لهم ولم يرفع الأمر إلى عامل الخليفة وأنشد:

فلا تحسبوا الاسلام غيّر بعدكم رماح مواليكم فذاك بكم جهلُ

ومن أخبار جفائه ما رواه ابن أبى الحديد فى شرح النهج. (ج ١ ص ٤٤٠) نقلا عن ابن قتيبة. قال:

خطب هشام بن اسماعيل المخزومى والى المدينة (وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك الذى قال فيه الفرزدق بيته المشهور: وما مثله فى الناس إلا مملكا الخ)

خطب إلى عقيل بن عُلّفه ابنته فردّه وقال:

رددتُ صحيفة القرشى لما أبت أعراقه إلا احورارا

يريد أن فيه شبها للعجم وعرقا منهم فلم يزوّجه لذلك. وكان هشام أبيض أشقر فهو مظنة أن يكون أعجمى الأصل. والعرب تسمى الأعجمى أحمر، وتجمعه على أحامر. لأن الشقرة تغلب على جنسه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم «بُعثت إلى الأسود والأحمر» يريد إلى العرب والعجم

وروى أبو عبيدة أنه قيل لعقيل: والله ما نراك تقرأ شيئاً من القرآن. قال: بلى والله إنى لأقرأ. قالوا: فاقرأ «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه» فقرأ «إنا خرّطنا نوحا إلى قومه» قالوا: أخطأتَ والله. قال: فكيف أقول؟ قالوا. تقول: «إنا أرسلنا نوحا» لا «خرّطنا نوحا» فقال: أشهد أنكم تعلمون أن

« أرسلنا » و « خرَطنا » سواء ثم أنشد

خُذا صدرَ هرشَى أوقفاها فإنما
كلا جانبي هرشَى لهنَّ طريق

وهذا البيت يُستمثل به حين التسوية بين أمرين . و(هرشى) كسكرى ثنية قرب الجُحفة فى طريق مكة يُرى منها البحر ولها طريقان طريق عبَّر عنه الشاعر بصدر هرشى وطريق عبَّر عنه بقفا هرشى ، وضمير (لهنَّ) يرجع إلى النياق . والخطاب فى (خذا) يرجع إلى رفيق سفره فهو يقول لهما : اسلكا إلى هرشى أىَّ الطريقين شئتما : جهة صدرها أو جهة قفاها فأنتما واصلان إليها .

وهذا المثل الفصيح على حد المثل العامىِّ الشامىِّ (كل الدروب على الطاحون) أى تؤدى إليها . ومعنى (خرطنا) الذى قال عقيل إنه بمعنى (أرسلنا) ماذكره القاموس فى قوله (خرط عبده على الناس إذا أذن له فى أذاهم) .

قال التاج (شبه العبد بالدابة التى يُفسح رسنها وترسل مهملة تفعل ماتشاء) فالخرط أصله فى الدابة ثم نقل إلى العبد ، ونقله عقيل إلى نوح عليه السلام ، وهذا من عنجهيته وتعنته فى جاهليته

ولعقيل شعر يؤثر لفصاحته وبلاغته : من ذلك قوله يرثى ابنه علّفة :

لتمش المنايا حيث شئن فانها مُحلّلة بعد الفتى ابن عقيل
فتى كان مولاه يحل بنجوة فحلَّ الموالى بعده بسبيل

يقول : إن حلفاء علفة أو جيرانه كانوا فى حياته ينزلون فى مرتفع من الأرض حيث هم مكرمون أو حيث تضىء نيرانهم للدلجين بما يجود به عليهم علّفة من القرى ، أما اليوم وقد مات علّفة فنزولهم أصبح فى قوارع الطرق حيث يُمتهنون أو حيث يتكففون الناس طالبين صدقتهم كعامة أبناء السبيل . ونَسَبَ إليه بعضهم البيت المشهور :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وإنه قاله فى ابنه عميس والصحيح أن هذا البيت من أبيات لغيره . فلعله استشهد به كما استشهد به على بن أبى طالب رضى الله عنه فنسب إليه أيضاً .

أما النص الذى روى من أخبار عقيل وفيه اضطراب وتلفيق من جهة ، وعبرة اجتماعية اسلامية من جهة ثانية — فهو ماقى كتاب (طبقات الشعراء) لابن سلام (صفحة ٢١٤) ونصه :

« حدثنى أبو عبيدة أن يزيد بن عبد الملك خطب إلى عقيل ابن علفة ابنته وقال : زوجنى فلست بواجد فى قومى مثلى . قال عقيل : بلى والله لأجدن فى قومك مثلك وما أنت بواجد فى قومى مثلى . فحبسه يزيد فضرب عقيل كنف ابنه جثامة وقال زوجه يابنى فأنت أحق باللائمة ، فزوجه أم عمرو ابنة عقيل ، فلما أهداها تمثل جثامة فقال :

أيعذر لاهينا ويلحين فى الصبى وهل هن والفتيان إلا شقائق

فرماه عقيل بسهم وقال : أتتمثل بهذا عند بناتى ؟ فخرج جثامة مراغماً لأبيه (أى مفارقاً له على رغم منه وكراهة) فأتى يزيد ابن عبد الملك فكتب عقيل الى يزيد : إنه قد أتاك أعق خلق الله . وكان يزيد قد أعطاه وحباه . فأخذ ذلك منه وحبسه » انتهى نص ابن سلام .

لكن الخبر من عند قوله (فلما أهداها تمثل جثامة الخ — لا يلتحم مع ما قبله إذ لا علاقة بتمثل جثامة بهذا الشعر : أيعذر لاهينا الخ مع تزويج عقيل ابنته من الخليفة . فلم يبق إلا أن الخبر مضطرب يحتاج إلى تصحيح . أو نقول هو ملفق يحتاج إلى تقويم وتوضيح .

والتلفيق أصله فى الثوب : يعمد إلى مابلى ورث من وسطه ثم يضم لفقاه (أى طرفاه) أحدهما إلى الآخر ويخاطان .

فالخبر المنقول من طبقات الشعراء ينتهى لفقه الأول عند قوله (فزوجه أم عمرو ابنة عقيل) وبين هذا اللفق واللفق الذى بعده وهو (فلما أهداها تمثل الخ) كلام ساقط سهواً من النساخ يمكننا العثور عليه فى معجم البلدان طبعة أوربا (ج ٤ ص ٦٦٧) — عند الكلام على دير سعد . وهذا نص ما فى المعجم بعد حذف السند :

« خرج عقيل بن علفة وابنه جثامة وابنته الجرباء . (ولعلها غير أم عمر التى زوجها من الخليفة فى الخبر المنقول عن طبقات الشعراء) حتى أتوا بيتاً له نا كحا فى بنى مروان بالشامات (يعنى أن عقيلا كان نا كحا أى متزوجا امرأة فى بنى مروان وقد أتاه زائراً مع ولديه . والشامات هى بلاد الشام) ثم إنهم قفلوا حتى

إذا كانوا ببعض الطريق قال عقيل :

قضت وطراً من دير سعد وطالما على عرض ناطحنه بالجماجم

ضمير قضت يرجع إلى النياق . وقوله (على عرض) بالعين المهملة ولعل صوابه (على غرض) بالمعجمة مصدر غرض إليه إذا اشتاق إليه) .

ثم قال عقيل لابنه : أنفذ يا جثامة (أى أجز البيت بضم بيت آخر إليه) فقال جثامة :

فأصبحن بالمومات يحملن فتية نشاوى من الإدلاج ميل العمائم

إذا علم غادرنه بتنوفة تذارعن بالأيدى لآخر طاسم

(طاسم بمعنى طامس وكأنه مقلوبه) ثم قال عقيل لابنته الجرباء : أنفذى يا جرباء فقالت :

كأنّ الكرى سقّاهمو صَرْخَدِيّة عُقارا تمطى فى المطا والقوائم

(قول الجرباء هذا فى وصف الخمرة وتأثيرها فى ظهر شاربها وقوائمه راب أباها عقيلا وجعله يعتقد أن ابنته الجرباء من شاربى الخمرة وإلا لما أجادت وصفها)

فقال عقيل : شَرِبْتِهَا وربِّ الكعبة ، لولا الأمان لضربتُ بالسيف تحت قُرطك . أمَا وَجَدْتِ من الكلام غير هذا ؟

فقال جثامة أخوها (منافحاً عنها) : وهل أساءت ؟ إنما أجادت وليس غيرى وغيرك (يريد جثامة) أنه لا يضرّ أخته فى خلوتها مع أبيها وأخيها إذا قالت الشعر وأجادت فى وصف الخمرة ، وإجادتها لوصفها لا يستلزم أن تكون شربتها . وإنما هى أديبة متقنة لصنعة الكلام وقرض الشعر فهى إنما تدل فى شعرها على مقدرتها وإجادتها الصناعة لا أكثر ولا أقل . لكن دفاع جثامة عن أخته الجرباء غاظ أباه عقيلا فرماه بسهم فاصاب ساقه وأنفذ الرحل . ثم شدّ على الجرباء فعقر ناقتها ، ثم حملها على ناقة جثامة وتركه عقيراً مع ناقة الجرباء . ثم قال لولا أن تسبنى بنو مرة لما عشت (وهذا خطاب لابنه العقير أو ابنته) ثم خرج متوجهاً إلى أهله وقال للجرباء : لئن أخبرت أهلك بشأن جثامة أو قلت لهم إنه أصابه غير الطاعون لأقتلنك . فلما قدموا على بنى القين ندم عقيل على فعله بابنه جثامة فقال لهم : هل لكم فى جزور انكسرت (يريد ناقة الجرباء التى عقرها) قالوا : نعم . قال : فالزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجزور . فخرجوا حتى انتهوا إلى جثامة فوجدوه قد أنزفه الدم فتقسموا الجزور واحتملوا جثامة وأنزلوه عليهم وعالجوه حتى برئ وألحقوه بقومه ، فلما كان قريبا منهم تغنى :

أيعذر لاهينا ويُلحين فى الصبى وما هنّ والفتيان إلا شقائق

المراد بالصبى اللهو الذى يكون فى زمن الصبى عادة : فقال له القوم إنما أفلتَّ (أو صوابه أبلَتَ) من الجراحة التى جرحك أبوك آنفاً وقد عاودتَ ما يكرهه . فامسك عن هذا ونحوه إذا لقيتَه لا يلحقك منه شر وعُرّ (العُر الجرب والعرب يقرنونه بالشرّ لأنه يتلف إبلهم فكان أبغض شىء إليهم) فأجابهم جثامة : إنما هذه خطرة خطَرَتْ ، والراكب إذا سار يغنّى) انتهى نص المعجم .

فقول جثامة : أيُعذر لاهينا الخ إنما جاء فى خبر رجوع عقيل مع ابنه وابنته من عند أصهاره بنى مروان المقيمين فى الشامات كما هو فى معجم البلدان ولم يجئ فى خبر تزويج جثامة أخته من الخليفة كما هو نص طبقات الشعراء . وقد تبين من هذا أن نص الطبقات ملفق من الخبرين المذكورين .

وفى الخبر الثانى الذى جاء فى معجم البلدان وصف لنفسية عقيل بن علفة الجاهلى الجافى الطبع ونفسية ولَدَيه الناشئين فى الاسلام وقد فهما منه (أى من الاسلام) أنه لا يشدد النكير على متبعيه إلا فى ارتكاب منكر أو استباحة حرام . أما أن تقول الفتاة المسلمة الشعر وتحسن صنعته وتصف الخمرة بما جعله الله فيها من تاثير فى جسم شاربيها فلا يراه ذلك الفتى المسلم حراما ، وإنما الحرام شربها فهو الذى يجب تجنبه ، ولذا وقف فى جانب أخته ينافح عنها . ويدرأ صولة أبيه الجاهلى عليها ويرفع صوته — كما علمه الاسلام — بان للفتيات الحق فى تناول متع الحياة المباحة كما للفتيان . وانه كما يعذر اللاهى من الفتيان ينبغى أن تعذر اللاهية من الفتيات : فلا يعذرون هم ويلحين هن بغياً وعدوانا إذ ليسوا جميعاً إلا شقائق وإخواناً . وقد جاء هذا الشعر الذى تمثل به جثامة قولا شارحاً للاثر المأثور : « النساء شقائق الرجال » .

« دمشق »

عبد القادر المغربى